٤ — الدينار والدرهم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال أحمد بن مسكين : وأزِفَ ترحُّلى عن (بلخ) وتهيأتُ روج ، ولم يبق من مدة مقيلى بها إلا أيام يجىء فيها السبتُ بع . وكانت قد وقعت مُمَاراةٌ بينى وبين مفتى (بلخ) إسحق ابراهيم بن يوسف الباهلى [1] تلميذ أبى يوسف حب الامام أبى حنيفة ، ويزعمون أنه شحيحٌ على المال وأنه غَلَّلَه من مُسْتَغَلَّاتٍ كثيرة [2] ، فكأنما غَشِيَتْه امتى ، فهو لا يرى أن أتكلم فى الزهد ، ويحسب هذا الزهد وتَ العبّاد ونَفْضَ الأيدى من الدنيا وسوءَ الصاحبة ا يُنعم الله به على العبد ، وخذلانَ القوة فى البدن ، وماجرى ذا المجرى من تزوير الحياة بالأباطيل التى زعم أنها أباطيل طاعات وما أقربها من أباطيل المعصية . ولم يكن هذا الذى د سمعني ولا حضر مجلسى ، ولولا الذى لم يعرفه من ذلك ند كان عرف

وجادلتُه فرأيته واهنَ الدليل ، ضعيفَ الحجة ، يُخَمِّنُ تخمين فقيه ، وينظر إلى الخفايا من حقائق النفوس نظر صاحب النصِّ إلى الظاهر ، كأن الحقيقة إذا ألقيت على الناس مضت نافذة كفتوى المفتى ... ويزعم أن الوعظ وعظُ الفقهاء ، يقولون هذا حرام فيكون حراماً لا يُقارفه أحد ، وهذا حلال فيكون حلالاً لا يتركه أحد ؛ وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومداخله إلى النفس وسياسته فيها ، ولا يعرف أن الحقيقة كالأنثى إن لم تزين زينتها لم تستهو أحدا ؛ وأن الموعظة إن لم تتأدَّ فى أسلوبها الحى كانت بالباطل أشبه ، وأنه لا يغير النفسَ إلا النفسُ التى فيها قوةُ التحويل والتغيير كنفوس الأنبياء ، ومن كان فى طريقة روحهم ، وأن هذه الصناعة إنما هى وضع نور البصيرة فى الكلام لا وضعُ القياس والحجة ، وأن الرجل الزاهد الصحيح الزهد ، إنما هو حياة تلبسها الحقيقة لتكون به شيئاً فى الحياة والعمل .

(١) توفى مفتى بلخ هذا سنة ٢٣٩.

(٢) المستغلات أصول الأموال وتغلل واستغل بمعنى

لا شيئاً فى القول والتوهم ، فيكون إلهامها فيه كحرارة النار فى النار من واتاها أحسها

ولعمرى كم من فقيه يقول للناس هذا حرام ، فلا يزيد هذا الحرام إلا ظهوراً وانكشافاً ما دام لا ينطق إلا نطق الكتب ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع ، وقد خلا من القوة التى تجعله روحاً تتعلق الأرواحُ بها وتضعه بين الناس فى موضع يكون به فى اعتبارهم كأنه آتٍ من الجنة منذ قريب ، راجعٌ اليها بعد قريب

والفقيهُ الذى يتعلق بالمال وشهوات النفس ولا يجعل همَّه إلا زيادة الرزق وحظ الدنيا — هو الفقيه الفاسدُ الصورة فى خيال الناس يُفهمهم أولَ شىء ألاَّ يفهموا عنه إذ حرصه فوق بصيرته ، وله فى النفوس رائحةُ الخبز وله معنى خمسٌ وخمس عشرة [1] ... وكأن دنياه وضعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يفسد الحقيقة التى يتكلم بها ؛ ولست أدرى ما هو هذا الشىء ولكنى رأيت فقهاء يعظون ويتكلمون على الناس فى الحرام والحلال وفى نص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم لم أجد لكلامهم نفعاً ولا رداً ، إذ يلهمون الناس بأرواحهم غير المعنى الذى يتكلمون فيه ؛ وتسخر الحقيقة منهم — على خطرهم وجلال شأنهم — بذات الأسلوب الذى تسخر به من لص يعظ لصاً آخر فيقول له لا تسرق . . .

* * *

قال ابن مسكين : فلما دار يوم السبت أقبل الناس على المسجد أفواجاً ، وكانوا قد تمالوا إزماعى الرحيل عن بلدهم — وجاء (لقمان الأمة) فى أشياعه وأصحابه ، وجاء أبو اسحق المفتى فى جماعته ؛ واستقر بى المجلس فنفذتْ الناسَ بنظرى فكأنهم نبات على الأرض ، فأذكرنى هذا شيخنا السرىَّ بنَ مُغلِّس السقَطى [2] ، وكان قد لزم داره فى بغداد لا يخرج منها ولا يراه إلا من قصد اليه ، وهممتُ أن أجعل الموعظة فى شرح كلمة

(١) يريد أنه فى هذه الدنيا (عملية حسابية ...) وفى أيام ضعفة الدين يكون الفقه استخراج الدراهم من النصوص . . .

(٢) السقط رديء المتاع (روبابيكا) وبائعه السقطى . وهذا الامام العظيم كان أوحد أهل زمانه فى الورع وله كلام إلهى مشرق وقد توفى عن سن عالية فى سنة ٢٥٣ .

المشهور: تصحُّ المحبة بين اثنين حتى يقولَ أحدهما للآخر : يا أنا . ومما نقلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه : منذ ثلاثين سنة وأنا فى الاستغفار من قولى (الحمد لله) . فقال صاحبه : وكيف ذلك ؟ قال : وقع ببغداد حريق فاستقبلنى رجلٌ فقال : نجا حانوتك . فقلتُ الحمد لله ؛ فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت إذ أردتُ لنفسى خيراً من الناس . قال ابن مسكين : ولكنى أحببت أن أكلم الفتى ومالَ الفتى ؛ فحدثهم حديث معرفتى بالسّرى أنى سمعتُ يوماً غيلان الخياط يقول : إن السرى كان اشترى كُرّ لوز[1] بستين ديناراً وأثبته فى رزنامجه[2] وكتب أمامه : ربحُه ثلاثة دنانير[3] ؛ فلم يلبث أن غلا السعر فبلغ تسعين ديناراً ؛ فأتاه الدلال الذى كان اشترى له فقال : أريد ذلك اللوز . قال الشيخ : خذه . قال : بكم ؟ فقال بثلاثة وستين ديناراً . وكان الدلال رجلاً صالحاً فقال للشيخ : إن اللوز قد صار الكُر بتسعين . قال السرى : ولكنى عقدت بينى وبين الله عقداً لا أحلُّه ، فلست أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً . فقال الدلال : وأنا قد عقدت بينى وبين الله عقداً لا أحله ألاّ أغشّ مسلماً ، فلست أشترى منك إلا بتسعين ؛ فلا الدلال اشترى منه ولا السرىُّ باعه

قال أحمد بن مسكين : فلما سمعت ذلك لم تكن لى همةٌ إلا أن آتى الشيخ وأصحبه وآخذ عنه ، فلم أعرّج على شىء حتى كنت فى المسجد الذى يصلى فيه فأجده فى حَلْقته وعنده ممن كنت أعرفهم : عبدُ الله بن أحمد بن حنبل وادريس الحداد وعلى بن سعيد الرازى ، وحوله خلق كثير وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تملوه نَضْرةُ روحه وكأنما يُمدُّه بالنور عِرق من السماء فهو يتلألأ للعين ؛ ولا يملك الناظر إليه أن يحس فى ذات نفسه أنه الأدنى من رؤيته فى ذات نفسه أن هذا هو الانسان الأعلى

ورأيت على وجهه آلاماً تمسحه مسحةَ الأشواق لا مسحة الآلام ، فهى آثارُ ما يجده فى روحه القوية ، لا كآلام الناس التى هى آثار الحرمان فى أرواحهم الواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوههم إلا مسحة الغم والكآبة . وما يخطىء النظر فى تمييز آلام السماء على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض فى الوج الأخرى فإن الأولى تتندّى على روح الناظر بمثل الطلّ قطَّره الفجر ، والأخرى تتثوّرُ كما تَهيج الغَبرةُ إذا ضرب الريحُ الأرض

كان الشيخ فى وجود فوق وجودنا فلا تتلوّن له الأشي ولا تعدو عنده ما هى فى نفسها ، ولا يحمل الشىء له إلا معناه حيث يصلح أو لا يصلح ، ومن حيث ينبغى أو لا ينبغى . ف تتلون الأشياء عند ما يضع الشيطانُ عينَه فى عيْن الناظر إليه وإنما تزيد وتنقص فى القلب عند ما يكون روح الشيطان القلب ؛ وإنما يشتبه ما ينبغى وما لا ينبغى عند ما يأتى الشىء جهتين : جهته من طبيعته هو ، وجهته من طبيعتنا نحن . ورب قد يجمع الانسان المال ثم لا يجد فى المال معنى الغنى ، وقد تتف أسباب النعيم ولا يكون منها إلا الذل . وكم من إنسان يجد وكأ لم يجد إلا عكس ما كان يبغى ، وآخرَ لم يجد شيئاً ووج بذلك راحته .

***

قال ابن مسكين : وما كان أشدّ عجبى حين تكلم الشيخ فق أخذ يجيب على ما فى نفسى ولم أسأله كأن الذى فى فكر قد انتقل إليه ؛ فروى الحديث : إذا عظّمتْ أمتى الدينا والدرهم نُزع منها هيبة الاسلام ، وإذا تركوا الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر حُرموا بَركةَ الوحى . ثم قال فى تأويله :

إن ملك الوحى ينزل بالأمر والنهى ليخضع صولةَ الأرض بصولة السماء ، فإذا بقى الأمر بالمعروف والنهىُ عن المنكر بق عملُ الوحى إلا أنه فى صورة العقل ، وبقيت روحانية الدنيا إل أنها فى صورة النظام ، وكان مع كل خطأ تصحيحُه فيصبح الانسان بذلك تنفيذاً للشريعة بين آمرٍ مطاع ومأمور مطيع فيتعامل الناس على حالة تجعل بعضَهم أستاذاً لبعض ، وشيئاً منهم نعديلا لشىء ، وقوة سنداً لقوة ؛ فيقوم العزمُ فى وجه التهاون والشدة فى وجه التراخى ، والقدرة فى وجه العجز . وبهذ يكونون شركاءَ متعاونين ، وتعود صفاتهم الانسانية وكأنهم جيشٌ عامل يناصر بعضه بعضاً فتكون الحياة مفسرةً ما دامت معانيها السامية تأمرُ أمرها وتلهم إلهامها وما دامت ممثلة ف الواجب النافذ على الكل

(١) الكر بضم الكاف مكيال عظيم يقدرون به فى الحساب وهو أربعون اردبا مصريا (٢) أى دفتر حسابه (٣) نحسة فى ثلاثة

والناس أحرار متى حكمتهم هذه المعانى فليست حقيقة ية الانسانية إلا الخضوع للواجب الذى يحكم ، وبذلك ذيره يتصل ما بين الملك والسوقة وما بين الأغنياء والفقراء ال الرحمة فى كل شىء واتصالَ القسوة فى التأديب وحده . ة الوحى إنما هى جعل القوة الانسانية عملا شرعياً لا غير

أما تعظيم الأمة للدينار والدرهم فهو استعباد المعانى الحيوانية الناس بعضها لبعض ، وتقطُّعُ ما بينهم من التشابك فى ية الانسانية ، وجعل الكبير فيهم كبيرا وإن صغرت معانيه صغير فيهم صغيرا وإن كبر فى المعانى ؛ وبهذا تمرج الحياة ضها فى بعض ولا يستقيم الناسُ على رأى صحيح ، إذ يكون صحيح والفاسد فى ملك الانسان لا فى عمل الانسان ، فيكنز ى مالا ويكنز الفقير عداوة كأن هذا قتل مالَ هذا وكأن ما لا قتلت أعمالا ، وترجع الصفاتُ الانسانية متمادية وتباع ضائل وتشترى ، ويزيد من يزيد ولكن فى القسوة ، وينقص ن ينقص ولكن فى الحرية ، وتكون المنفعة الذاتية هى التى تأمر ى الجميع وتنهى ، ويدخل الكذبُ فى كل شىء حتى فى النظر ى المال فيرى كل انسان كأنما درهمُه وديناره أكبر قيمة من دينار الآخر ودرهمه فاذا أعطى نقص فغش ، وإذا أخذ زاد سرق ؛ وتصبح النفوس نفوساً تجارية تساوم قبل أن تنبعث لفضيلة وتُماكِسُ إذا دُعيت لأداء حق ، ويتعامل الناس فى الشرف على أصول من المعدة لا من الروح ، فلا يقال حينئذ إن رغيفين أكثر من رغيف واحد كما هى طبيعة العدد ، بل يقال إن رغيفين أشرفُ من رغيف كما هى طبيعة النفاق

أما التجارة وهى التفسير الظاهر لمانى النفوس فتصبح بين الغش والضرر والمكر ، وتكون يقظة التاجر من غفلة الشارى وتفسد الارادة فلا تحدث إلا آثارها الزائفة . وما التاجر فى الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصدق والخلق فى الوضع المتقلب فكلمته كالرقم من العدد لا يحتمل أزيد ولا أنقص مما فيه ، ويمتحَن بالدنيا والدرهم أشدَّ مما يمتحن العابد بصلاته وصيامه . وقد شهد رجل عند عمر بن الخطاب فى قضية فقال له عمر : ائتنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل أثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ، قال فكنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورعُ الرجل ؟ قال : لا

قال عمر : أظنك رأيته قائماً فى المسجد يُهَمْهِمُ بالقرآن يخفض رأسه طوراً ويرفعه أخرى . قال : نعم

قال : فاذهب فلست تعرفه

وإنما التاجر صورة من ثقة الناس بعضهم ببعض وإرادة الخير واعتقاد الصدق ، وهو فى كل ذلك مظهر توضع اليد عليه كما تجسُّ اليدُ مرض المريض وصحته

فاذا عظمت الأمة الدينار والدرهم فانما عظمت النفاق والطمع والكذب والعداوة والقسوة والاستعباد ؛ وبهذا تقيم الدنانير والدراهم حدوداً فاصلة بين أهلها ، حتى لتكون المسافة بين غنى وفقير كالمسافة بين بلدين قد تباعد مابينهما . وإنما هيبة الاسلام فى العزة بالنفس لا بالمال ، وفى بذل الحياة لا فى الحرص عليها ، وفى أخلاق الروح لا فى أخلاق اليد ، وفى وضع حدود الفضائل بين الناس لا فى وضع حدود الدراهم ، وفى إزالة النقائص من الطباع لا فى إقامتها ، وفى تعاون صفات المؤمنين لا فى تعاديها ، وفى اعتبار الغنى ما يُعمل بالمال لا ما يجمع من المال ، وفى جعل أول الثروة العقل والارادة لا الذهب والفضة

هـذا هو الاسلام الذى غلب الأمم ، لأنه قبل ذلك غلب النفس والطبيعة

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

فى القهوة والأدب ؟؟؟

دراسات أدبية ، بحوث اجتماعية ، أقاصيص مصرية لون جديد فى النقد وعرض الأدباء ، اتجاه مبتكر فى عالم القصة ، صورة واضحة للدراسة الحرة ، والأدب الشاب

خطوة جريئة فى عالم الأدب

١٧٠ صفحة من القطع الكبير . الثمن ٦ صاغا بأجرة البريد

يطلب من المؤلف عبد المعطى المسيرى — صاحب قهوة رمسيس بدمنهور